ماري هوتنر

هل ما يزال ممكنا إنقاذ الجدة؟

دار نشر تينيمان

شيء ما لا يسير هنا على ما يرام

دقت الساعة الرابعة في محطة القطار. كان الأمر مثيرًا للقلق. لم يعد بوسعي الآن إنكار ذلك. جلست، أنا "بيا شنايدر"، البالغة الحادية عشر من العمر على أريكة مطلية باللون الأزرق في ميدان المحطة، وشعرت بالريبة. كان الشعور وكأن السيدة "جريبينشتاين" البغيضة طلبت مني في حصة اللغة الألمانية أن أستعرض واجبي المنزلي أمام الصف كله والذي لم أقم بأدائه، بينما حدق بي الجميع، الأمر الذي أشعرني بالمغص. كان الوضع الآن مشابهًا. هذا بالإضافة إلى حرارة الطقس المرتفعة جدًا. كان لون السماء أزرقًا فيروزي، والشمس متوهجة. التصق بنطالي القصير بمؤخرتي، وتجمع العرق في مأبضي، وسال ببطء على ساقي وصولًا إلى حذائي الأحمر.

خلعت قبعتي. التصقت غرتي المقصوصة بشكل مائل (يعود الفضل بذلك لأبي) بجبيني. مسحت العرق عن وجهي بطرف قميصي المخطط. ارتديت قبعتي ثانية، ورحت أنظر باحثة بين جموع الناس في ميدان المحطة. مرت مجموعة من الشباب وهي تستمع إلى الموسيقى من الهاتف النقال، بينما فتح أحدهم علبة كولا صدر صوت لدى فتحها. رفع جد حفيدته ومرجحها في الهواء. حُملت أمتعة ثقيلة في سيارات، وُضعت المفاتيح في مفاتيح التشغيل، وانطلقت السيارات مغادرة المكان. أشعت الشمس على الأريكة المطلية باللون الأزرق. لا أثر للجدة "لوره".

هل تلخبطت في الأوقات؟ لقد سبق وحدث ذلك في الصيف قبل عامين. جلست وقتها أيضًا لمدة ساعة في محطة القطار وأنا أنتظر. جاءت بعدها الجدة "لوره" مسرعة وهي تركب دراجتها الهوائية. انفكت عمامة رأسها البرتقالية الملفوفة بشكل فني من سرعة القيادة، ورفرفت في الهواء كالعلم. رمت دراجتها أرضًا ووجهها محمر، وركضت باتجاهي وأطالت في عناقي.

قالت: ""بيا" يا صغيرتي! "بيا" يا صغيرتي! يالي من امرأة مهملة. لقد نسيت الوقت وأنا أخبز الكعك. يا صغيرتي المسكينة! هل لك أن تسامحيني يومًا؟" مدت ذراعيها ونظرت إلي بخوف. ومع أنني ابتسمت قليلًا (دائمًا ما تجعلني الجدة "لوره" أبتسم)، إلا أنني هززت رأسي ببطء بالنفي.

ـ "ولا حتى لو صالحتك بكعكة فراولة وفانيلا؟"

هززت رأسي ثانية.

ـ "كعكتين؟"

هززت رأسي.

ـ "ثلاثة؟"

هززت رأسي مرة أخرى.

ـ "حسنًا. ما هي مطالبك؟"

ـ "تسعة."

وضعت الجدة "لوره" يدها على فمها متظاهرة بالانزعاج.

ـ "تسع كعكات؟"

ـ "تسعة. لا أكثر ولا أقل."

وهذا ما حدث. وفت الجدة بوعدها. أكلنا تسع كعكات فراولة وفانيلا لمدة يومين، واستمتعنا بطعمها الرائع.

أرجحت ساقي ورحت أنظر إلى مقدمة حذائي. بكم كعكة يسعني المطالبة اليوم؟ اثني عشر كعكة؟ أم هل من الأفضل أن أطلب خمسة عشر كعكة مرة واحدة؟

لكن هذه المرة كان الوضع مختلفًا عنه قبل عامين، أولًا، لأن الجدة "لوره" وعدتني وقتها أنها لن تتأخر علي ثانية، والجدة "لوره" تفي دائمًا بوعودها. وثانيًا، لقد انتظرت هذه المرة لمدة ساعتين وأربعة عشر دقيقة.

انتقل مؤشر ساعة المحطة الكبير ليشير إلى الساعة الرابعة والربع. صارت الساعة الآن الرابعة وخمسة عشر دقيقة. صار الميدان خال من الناس.

توصلت الآن إلى الخلاصة التالية:

ـ شيء ما ليس على ما يرام.

ـ علي التحرك وفعل شيء.

اتخاذ موقف

من العجيب أنني وجدت الطريق لوحدي إلى بيت جدتي. لم يكن علي سوى المشي على طول شارع المحطة مرورًا بصالون "ساندرا" لتصفيف الشعر الذي جلست أمامه سيدتان مسنتان وثرثرتا مثل ببغاوان. وُضعت في شعريهما قطع من رقائق الألمنيوم راحت تلمع في ضوء الشمس. بدين بذاك المنظر ككائنات فضائية. نظرت المرأتان سريعًا إلي ثم تابعتا الثرثرة. غطيت وجهي بقبعتي. اهتزت حقيبتي ذات العجلات فوق الأسفلت.

خرجت امرأة سمينة على بعد خمسة بيوت إلى الرصيف وهي تتأوه، وأخذت لوحة إعلانية زهرية اللون من أمام متجرها. كُتب على اللوحة: "ملابس داخلية تبرز أنوثتك. احصلي الآن على ثلاثة سراويل بسعر واحد. ظهرت تحت النص صورة لامرأة تستعرض مؤخرتها المكتنزة أمام الكاميرا. قطبت حاجبي، وهززت رأسي، وتابعت المسير.

نجوت بالكاد من سائق دراجة سباق هوائية حمراء أرعن. قفزت جانبًا تاركة حقيبتي. تعثر السائق الأرعن قليلًا، ثم انطلق ثانية دون أن يعتذر.

صرخت به وأنا ألوح له بقبضتي: "هل جننت؟"

دائمًا ما قالت الجدة "لوره" أن على المرء اتخاذ موقف. قالت إن على المرء ألا يستسلم أبدًا. على المرء أن ينهض ويقول ما عنده.

امسكت بالحقيبة التي كادت تتدحرج إلى الجهة الأخرى من الشارع، وأكملت الطريق. مررت بمتجر السيد "شوته" ذي شبابيك العرض الكبيرة الواقع على ناصية الطريق. يمكن شراء كل شيء في متجر السيد "شوته" كالكرات النطاطة، وبطاقات التجميع، والبطاريات، والحليب، والشمام، والمعكرونة، ودفاتر الكلمات المتقاطعة، وبوظة البندق، والحلوى على شكل أفاع، وطعام القطط، والطوابع البريدية، وأوراق اليانصيب، والخبز الطازج. تزعم الجدة "لوره" إن السيد "شوته" سبق وأن باع أيضًا من قبل طيور الكناري وجراء الكلاب. ولكن هذا حدث قبل أن أولد للأسف، فلقد رغبت في اقتناء جرو أو حتى طائر كناري إذا اقتضى الأمر.

لم يكن المكان ببعيد من المتجر. لم يعد علي الآن سوى قطع مسافة قصيرة عبر مساحة خضراء جلس عليها الشباب الذين استمعوا إلى الموسيقى من الهاتف النقال في محطة القطار دون أن يعيروني انتباهًا. وصلت أخيرًا إلى الجانب الأيسر من طريق شجر البتولا. تمكنت الآن من رؤيته من بعيد، ذاك البيت الأصفر المائل في آخر الشارع ذو الباب الأزرق وسور الحديقة المنقط.

جررت الحقيبة ذات العجلات فوق حجارة الطريق. آلمتني ذراعي في تلك الأثناء. ولكنني شعرت بفرحة الوصول كلما اقتربت من بيت الجدة، وأيقنت أن كل شيء سيكون بخير.